

الهوية

قصة بقلم محمد عزير الجبابرة

نعم ، يروى انه مرت عليه فترة بعين مومن كان فيها سليطا اكثر من اللازم ، ومشافيا ، ولكن ذلك ليس اصيلا في طبعه ، بسل طارنا فحسب .

عندما دخل السجن ، كان حلو الكلام ، يقيم صلواته الخمس كل يوم ، ويكثر من الذكر ، حتى اطلق عليه رفاقه اسم « الفقيه » ، ونادوه احيانا بـ « الشيخ » .

بعد اعوام ثلاثة ، صدر عليه الحكم بعشرين سنة سجننا ، وقد كان يطمع في السراح ، فما فتىء يحاول الافناع ببراءته : لم يقتل ، انه مظلوم ، انه ضحية ...

صدر الحكم فنقل « الفقيه » الى قسم المجرمين ، بعد ان لبث شهرا بقسم الاعتقال الموقت .

تغيرت حياة « الشيخ » . لم يجد في غرفته الجديدة الا كل اثم مفخر يتشدد بما قام به سابقا من مساوئ وموبقات . فالبراءة كلمة عديمة المعنى بين المجرمين المرموقين ، بل يعدونها مسبة في حق ايهم تنسب اليه او ينتسب اليها .

اراد « الفقيه » ان يصلي فاتخذ سخرية :

— لا يا سيدنا ! قد اخطأت الطريق : المسجد بقي في البلد ، اما هنا فعالم قد سبه الله من حسبه . عد الايام ، وعندما تخرج الى عالم المدنيين المحظوظين ، ادفع لربك صلواته بالجملة !
وزاد ثان :

— يا مولانا ! نحن لا نتفاهل بالذكر او بالصلاة : نجعل السبحة في عنق صاحبها حتى يخنق ، ومن صلى ركلناه عند الركوع كي نطسج جبهته الارض ويرى النجوم السبع ... افهمت ؟! ...
ويضيف اخر :

— من الخير لك ان تمثل لنا كيف فعلت مع فتيلك حتى نتفرج ، وان تحكي لنا كل سوابقك البطولية ... اننا هنا لا نتسلى الا بماضينا . من لا ماضي له عشرته ملل وضجر . فالمرأة تفتخر برجولة زوجها ، والرجل يفتخر بماضيه ...

عبثا حاول صاحبنا ان يعظ القوم ، ولكنه كان فسي واد ومن يرشدهم في واد . لقد طلبوا منه ان يدعو ربه بأن ينزل عليهم مائدة يدخل من الشباك ، فيها الكافي من السجائر والخبز بالجلجلان والدجاج المقلي بالزيتون الحامض . اذا كانت صلواته مقبولة ، فلا بد ان يستجيب الله دعاه ... انهم يودون ان ينعموا ، في هذه الدار ، وفي هذا الوقت بالذات الذي ينجرعون فيه الحرمان ... الان ! .. الان ! اه ، الان ! ما شأنهم والقد ؟ اذا لم ينعموا الان فقدوا الحاسة الجمالية وظهرت لهم ، في الجنة ، الحور العين ، فالخنافس . فاية فائدة في الانتظار ؟ ...

غضب المشلم في المساء ، كما غضب في الصباح ، وغضب اليوم كما غضب امس ، ولكن « على من نقرأ زبورك يا داوود ؟ » .
لقد بحالف القوم ضده ، ونبذوه من زميرتهم لا يكلمونه الا بازدراء وسخرية .

كانت للفقيه لحية طويلة ، تصاحبه منذ ايام الحرية ، فاخذ

كان مساء يوم الخميس ٧ اكتوبر من سنة ١٩٦٣ مرعدا ممطرا . بعد ان ساد الفرفة سكوت لا تقطعه سوى انفاس منعبة ، وقد غلف الجو ليل زائر لا يبعث على تفاؤل ، صاح « المشلم » :
— يا اخوة !

انته الجميع ، واتجهت اكثر من مائة عين الى الرجل الواقف في مؤخر الفرفة ، بعكس وجهه المريض شمعة فصيرة ارهقها الاحتراق حتى بدأت بلامس الارض ، تميل شملتها ذات اليمين وذات الشمال في تراخ كخطوات متناقلة لشيخ مريض .

بلغ ريفه ، وقتل شاربويه الطويلتين اللنين استحق من اجلهما لقب « المشلم » ، ثم صاح :
— يا رجال !

تسمرت الوجوه نحوه ، وامتدت الاذان ، ولكن الكلمات لم تخرج من فمه ، فكانها اكبر من حلقومه . ولاول مرة يرى القوم المشلم مترددا ، بل عاجزا عن الكلام . اين نبراته المرعدة ؟
سكوت مخيف .

الجميع يحس بفضول ملح لان يعرف ما سيصدر عن الطود العتيد الذي استطاع ان يسطر سلطته الجسدية والعضوية ، لا على الفرفة ٧٢ فحسب ، ولكن على مجموع غرف سجن « عين مومن » ، وعلى كل ما ينتمي اليه من سجناء وحراس واداريين .

المشلم من الشاطئ الاطلسي ، من ناحية « دكالة » المشهورة بالقمح الوفير ، والعنب الاسود الغليظ ، وباجسام رجالها الضخمة . ان له جسدا من القالب الكبير ، ووزن تجاوز المائة كيلوغرام . كل شيء في هذا الجسد متناغم . اذا نكلم المشلم تجعدت اسارير جبينه، وجمحت عيناه السوداوان ، وارتخت شرفاه ، ونقلص ذقنه ، وامتدت شفتاه . لصوته دوي يابس . اثنتا عشرة سنة بالسجن (او الديار المقدسة كما يطيب له ان يسميه) اكسبته حنكة في قيادة الرجال ، فانسجم صوته مع صدى الفرف ، واعترف له الحراس والسجناء بامتيازات الاستبقية وبفضائل القوة الجسدية .

لم تمض عليه الا خمسة اعوام بـ (عين مومن) حتى اصبح يتمتع بحصانة المحظوظين ، ينظر اليه بتقدير مقرون بالخوف والقبطة . انه يعرف كم هو قوي البنية ، وقوي العزيمة ، مما يجعله اسد الفرفة : يأمر فيطاع . ولكنه يظهر قواه ويتباهى بها اكثر من ان يستعملها ، اذ قلبه لا يخلو من رافة . له لسان طويل طليق لا يفتر عن التوبيخ والنقد، ولكنه يمنح الثناء للمستحقين ، تنزل عبارات نقده على الخاطئين كالزمهرير ، فيحنون رؤوسهم وهم صافرون . اما ذراعا الفتولتان واصابعه الطويلة فلا تتحرك الا عند الحاجة ، فلطالما كرر : « هؤلاء البشر كدجاج الماء ، بنفخة مني يطير الواحد منهم . فكيف به لو ركلته او ضربته باحدي يدي ؟! ... » .

انه يطاع ويحترم لان للقوة هبة في نفوس البشر ، فهو قوي بالقوة في ذاتها ، لا لتناج القوة ، مما اسبغ على قوته شيئا من القداسة ، ومن هنا الجانب الاستطوري في شخصية المشلم .

السجناء في البداية يملكون اصابعهم عليها ((تبركا)) ، ثم صاروا يجذبون اطرافها بعنف ، وصاحبنا في حيرة من امره ، يصطنع الابتسام عليه يتقلب على الم العزلة التي فرضوها عليه . فتغير طبعه ، بعسد ان تخلى عن الذكر جهرا ، ثم سرا . احس انه يحيا سجنا مضاعفا : ظلم البيئة فد زج به في معتقل (عين مومن) ، اما سوء اخلاق رفاقه فقد جعله سجين السجناء . نقلت عليه وحدته ، وظهرت الامم في سلوكه ، وحتى في جسمه :

((اني ميت ولا احد يشيع جثمانى الى المقبرة ...))

اه . كل ما افعله يعتبرونه مخالفة منسي لاراقهم . فليست من عالمهم حيث يتلهون بكل شيء ، ويحاولون التسلي وتناسي وضعهم ، مما يعينهم على حياة عادية في عالم ليس عاديا . لم اعد من عالمي انا : الايام قد اعطيت اعرافي وعاداني . من انا لا اني بريء ، والصدالة تعديني فابلا ! انا سجين ، والمسجونون يبنونني من حظيرتهم . ما زلت مؤمنا ولكني ، منذ شهر ، لا اتدين ... من انا ؟ نعم ، من انا ؟ . دمعت عيناه ، وحاول ان ينام .

((يا رب ! لقد غلبت على امري ! ايماني قوي ، ولكن تيار المحيط الذي يعاندني اقوى . بانفسك كنت اطعم في جنتك ، ولكنهم القوا بي في جحيم الوحدة . يا لطيف بك استعين ! يا رب الارباب)) . شخر مرات ، ثم ارفع صوته من جديد :

((كلما ابتعدت عن العبادات شعرت بانفصام عنيف عن الماضي العزيز ، ولكن جحيمهم لا يطاق . ان بغيت هكذا ، على عتبة عالمهم ، تصدع كياني ... لو كنت في زنزانة منفردا لكان ذلك اريح لي ، ولما انسلخت عن الماضي ، عن شخصيتي ... والان ما العمل ؟)) هنا هزه سجين من كنفه بعنف :

– الا يكفي الشخير ؟ ان كان لا بد ان تحلم جهارا ، فاذهب الى المراض واركننا ننام !))

كالعادة ، كنها المشلم في نفسه ولم يبدها لهم ، تجنبا لكل تعقيد في القضية . صدمة اخرى اذهبت عنه النوم . فاخذ يفكر :

((هكذا سيتدخلون حتى في احلامي ! ..))

لقد اذقت ساعة الاختبار : المقاومة او الاستسلام التام ... ليس عليه الا ان يملن الحرب على تصرف الخبثاء : ان صاحوا ، صاح اكثر منهم ، وان سبوا كمال لهم الرطل رطلين ، وان ضربوا ضرب ... والعاقبة لمن هو اشد قوة . اليس هو اكثرهم جميعا قوة جسمية ؟

من تلك الليلة ، دخل صاحبنا مرحلة تاريخية من حياته : قرر ان يتصملك ، مثلما يتصعلكون واكثر ، فيجازي السيئة بالضعف . شعر بشيء من راحة اليال ... واخيرا كيف سلوكه مع سلوك رفاقه ، فامتزج بعالمهم . لكن بالرغم من ذلك لم يتواجد معه القوم تواجدا صريحا ، انهم يعتبرونه الان واحدا منهم ، ولكن مع شيء من التحفظ .

هو قوي ، هذا شيء مسلم ، ولكن الجماعة المؤلفة تتقلب على الفرد ولو كان اسدا ، فليتحزبوا ضده في صف مناسك .

مرت الايام ، واخذ مساجين قداما يسرحون ، ويأتي مكانهم جدد لا معرفة لهم بطقوس المكان ، فتصادق صاحبنا مع هؤلاء وحزبهم تدريجيا ضد خصومه العنيدين ، وحرز على شيء من النجاح لانه قد تعرف ، بدقة ، على نواحي الضعف عند زعماء معارضته .

جاء يوم عيد الفطر ، فقرر الجميع ان ينظموا حفلة مسائية في غرفتهم . غنى القوم ، وتبادلوا التكت ، وفي نشوة الاحتفال ، طلب بعضهم من صاحبنا ان يرقص ، وهددوه بافتلاخ لحيته ان ابي . امتنع ((الشيخ)) ، فانقلبت الحفلة الى ضجيج ومشاغبات ، وانقسم القوم الى معسكرين : اقلية الى جانب صاحبنا تدافع عن لحيته ، واخرى تريد حرقها . واخيرا تدخل حارس الليل وفرض السكوت على الجميع .

في مساء الفد قصد ((الفقيه)) حجام السجن وحلق لحيته ، ثم برم شاربيه وصقلهما بالزيت لتلما . حاول الا يراه رفاقه ، وانسل الى الفرقة مستترا . فتعجب القوم ان لا يكون صاحبنا معهم في الصف وهم ذاهبون الى الاكل ، وبدأت التساؤلات والتعليقات تتابع ، ولشد ما بهروا من منظره عندما دخلوا عليه .

كان واقفا في مؤخر الفرقة المستطيلة ، وقد تخلى عن ثيابه ، عاد سروال صغير يسر عورته ، وخلخل ذراعيه فوق صدره ، وفرق بين فخذه ، وامال رأسه شيئا ما نحو كتفه اليمني لتستقيم له نظرات حادة نحو الرفاق وهم يدخلون واحدا بعد الاخر . جحظت العينين ، ولكن الالسنه لم تنطلق . مشهد صاحبنا مريع .. لقد تخلت عنه وداعنه ، وفارفته سيمة الوفار ، وبرزت معالم حزن عميق على وجهه وكأنها كانت فيما مضى تنسر وراء اللحية . ظهرت رجولة ((الفقيه)) في كل المفصل العوية ، وفي النظرة الفاسية ، وفي وفة الفتو . لم ينس احد ببنت شفة ، ولم يستطع ان يواجه نظرات صاحبنا بملها . منشف الجميع ، هذه المرة ، ان ((الشيخ)) ليس فويا فحسب ، بل ان عضلاته عضلات هرقلية ...

وبعد لحظات تبادل خلالها زعماء المعارضة الفمزات ، ارفع صوت احدهم :

– اين لحية الشيخ ؟ لقد مسخ وجهه بدونها . ها ها ! ..

فاجاب تان :

– الم يحرقها عمر ، كما وعدنا بذلك امس ؟

وارتفع صوت ثالث :

– لكن بغيت الشلاغم ! ..

صفتت جماعة وهي تردد :

– ليحي المشلم ! ليحي المشلم ! ..

كانت عبارات للتحرش ، ولكن صاحبنا لم يفعل ، مما شجسج

احدهم ان يقول :

– لو ان عمر كان بطلا لرفصنا امس على نيران اللحية الموفرة !

فصاح اخر :

– من الان فصاعدا ، كلما ذكرت اللحية ، وجب ان نقول : يرحمها

الله ! الله اكبر ! مانت اللحية ! فلنطلق الرجل من شلاغمه البرافة !

تمزقت فقهات من جوانب الفرقة الاربعة ، والفقيه لا يحرك ساكنا . فصاح عمر هازنا :

– عوضا من ان يسمح لنا بحرقها ، حلقها ورمى بشعرها في قدر

الحريرة التي شربناها هذا المساء ، لهذا انا احس الان بوجع في معدتي .

كم قلت ، وكررت عليكم ، ان الشيخ خبيث ! ها ... ها ...

ضم صاحبنا قدميه واطلق ذراعيه . وتمطط بكل جسده ، ثم

طقق اصابعه ، قبل ان يصيح بصوت مريع :

– نعم ، اني خبيث ، وسأذيقكم حلاوة خبيثي ، كل يوم .. نعم ،

فليحي المشلم ! من الان فصاعدا ، اسمي هو المشلم ، المو – شا – لقا – م !

ساد صمت رهيب ، واستيقظ حزب المعارضة على واقع جديد .

ما الموقف ؟ مقاومة المشلم وهو ينتفض عليهم ، ام الاستسلام الى

تهديداته ؟ هل هو على قدرة كافية لانجاز وعيده ؟

بدأ كل واحد من الخصوم يقارن بين امكانياته الجسدية وامكانيات

مخالفيه ، وبين قوة المشلم والعاطفين عليه . وعندما كان كل واحد

يتصور الوضع الجديد ، وهو جالس على ملاءه يلقي نظرات خفيفة على

صاحبنا ، بقي هذا واقفا ، يتمطط تارة ويتشاءب تارة ، في نشوة الواعي

لقواه ، المتيقن من النصر . كل حركاته تعبر عن زهو نفس تنفجر بعد ان

طال بها اعصار الكبح . بارك الله في القوة ! انها نعم المحرر ، ونمسم

الحليف !

سأل صاحبنا القوم بملء شديقه :

– مالكم سكتكم وكان على رؤوسكم الطير ؟ ان الشيخ ، او الفقيه ،

قد تحول الى المشلم .. الخبيث .. اسمعوا ! لقد انزلت الحمل عن

كنفي : من اليوم ، اشهد أنا الفقيه الحاج عبد الله الدكالي ، ان اسمي هو المشلف ، واني قد تجردت عن كل ما يذكركني بماضي حياتي : فالقوة صلاتي ، القوة ذكري ، القوة سنسني المروءة والاخلاق ، فلنحي القوة . وليحي المشلف . الله . قد فجرت القرحة ، وهجرت عالم الحاج عبد الله الدكالي لالقي بنفسي في عالمكم . فحتى اللحية اقتلعتها لكي ادخل عالمكم دون أي زاد او اية ذكرى .. والان مرجا بسي فسي عالمكم ! .. ولكي نحتفل بحقيقة مولودنا الجديد ، سنشاهدون مبارزة في هذا المساء .

اخذ يتمشى ذهابا وجيئة في تبخر ، ثم التفت الى عمر ، رئيس المعارضة :

- الان ، تعال يا حضرة الزعيم المشؤوم ! اقرب لاشفيك مما اصابك في كرشك ، بعد ان ابتلعت شعر لحيتي رحمة الله !

اصفر لون عمر ، وسرت في كل جسمه رعشة ، وفقر فمه دون ان يصدر عنه شيء ، ثم ضم شفثيه وهما يضطربان كشفثي محموم . حاول ان يفتعل الابتسام ، فخانه التوفيق ولم يظهر على وجهه إلا ما يشبه مدخلا الى الابتسام . مشى المشلف ، بخطى متراخية ، وصدره بارز ، والذقن متعرج ، حتى اذا مر باحد الخصوم ، مال عليه بسرعة وخطف من بين شفثيه سيجارة موقدة ، وجعلها في فمه . اخذ يمتصها بنهم ، ثم اقترب من عمر وقذف بكيميات من الدخان على وجهه . توقف المشلف ليفتل شاربيه ، والسيجارة تندلى من جانب الشفثين . سقط بعض الرماد على رأس عمر ، فزاله دون ان يحتج . ماذا اصاب « الزعيم » ؟ هل به شلل حتى يصبر على الذل والمسكنة دون ان يحرك ساكنا ؟

الجميع يعرف ان لعمر فكرا صغيرا يتربع جمجمة كبيرة لا تضاهيها جمجمة اخرى في الفرفة ٧٣ ، ولكن لسانه لا يفتقر عن التنكيت والسب وان يده غالبا ما تسبق لسانه ، فيصنع خصومه على الوجه ، او يضربهم على الصدر ، وان ضرباته تترك ، دائما انرا لا يستهان به . الكل يعلم ان المشلف وحده ، من بين الجماعة ، قادر على ردع عمر ، لولا ان ل « الزعيم » انصارا اوفياء ..

الان ، ماذا سيفعل عمر ، وقد تحرش به المشلف ؟ لاول مرة رآه القوم يهان دون رد فعل . لقد تخيل بعضهم انه سيفقز واقفا وينتقم اشد انتقام .. هل سكوته خدعة حرب ترقبنا للفرصة المناسبة حتى يضرب في المفصل ؟ لم يترك المشلف لتخمينات القوم مجالا ، فقد جثا على ركبتيه ، امام عمر ، واخذ ينفخ الدخان بملء شديقه على وجه الزعيم :

- ما رأيك ، يا عمر ، لو اني احرق ما تبقى من شعر على بصلصة راسك اليمون ؟

جمل عقب السيجارة على رأس عمر ، فصاح هذا مستقيئا . وقف المشلف وانذر :

- بالله العظيم ومولاي « بوشعيب » ، ان كل من يحاول ان يحمي عمر لا يلومن الا نفسه !

اخذ المشلف يمشي ، في وسط الفرفة ، فلا تسمع الاخطواته ، ثم وقف فجأة ، واصاف بلهجة صارمة :

- اسمعوا ! باسمكم جميعا ابلغ عمر اننا لن نعتبره ، مسن الان فصاعدا ، « كبرانا » مسؤولا عن الفرفة ٧٣ .

تململ احدهم وقال :

- لماذا تتكلم باسمنا ؟ اليس لنا السنة ؟ ..

وثب المشلف نحو المتكلم ، واخذه من قدام قميمه ، وانتشله مرات قبل ان يوقفه بعنف ويرمي به فوق مجموعة من الرفاق :

- من اعطاك الكلمة يا ابن الزنا ؟ .. والان ما رأي عمر ؟

اخذ عمر يتمتم ويتعلم قبل ان يصرح بانه يتخلى عن منصبه .. انه يقترح ان تسند المهمة الى الحاج عبد الله الدكالي .

فسال المشلف غاضبا :

- من هو الحاج عبد الله الدكالي ؟ هذا الشخص اعدمناه !

نحن ، هنا ، لا نعرف الا المشلف ..

- يحي المشلف ! يحي المشلف !
- شكرا لكم !

ثم التفت جهة عمر يسأله بنظراته ، فاستأنف هذا الاخير الكلام :

- اني اقترح ان يقوم بالمهمة المشلف .

- فليحي المشلف ! فليحي المشلف !

- شكرا لكم ! .. اني متيقن ان بعضكم يؤيدني انتقاما من عمر ، لا حبا في ، وان البعض الاخر يجاري التيار نفاقا ، عملا بالمثل الغربي ، « الله ينصر من اصبح » .

حتى المشلف رأسه ، كمن يفكر ، قبل ان يرفعه ويصرح :

- اذن ، فلاحى أنا ! ..

في صباح اليوم التالي ، قبل الذهاب الى الاشغال ، توجهت جماعة من غرفة ٧٣ ، من بينها عمر والمشلف ، لتخبر الاداريين بما حصل من تغيير في قيادة الفرفة . فقال الناطق بلسانهم :

« لقد قررنا ، بالاجماع ، ان يصير الرقم ١٧.٣ ، وهو الحاج عبد الله الدكالي ، كبرانا علينا . ان ٢٣١٣ ، عمر ، تنازل عن المهمة .

والكبران الجديد يحمل اسم المشلف » .

مرت شهور والمشلف يمارس القيادة : يتكلم باسم الفرفة مع ادارة السجن ، ويستخدم بعنف السلطات الثلاث ، الصوت المزعج ، والصفع باليد ، والركل بالرجل ، كل واحدة على حسب الظروف . ومع مرور الايام ، اخذت الطبيعة تتقلب على الطبع :

« انا لا اؤمن بنبالة الدور الذي اعبه . فلي ملاحظات كثيرة على شخصيتي السابقة ، على الحاج عبد الله الدكالي ، ولكنها شخصية احسن بكثير من شخصيتي الحالية : المشلف مجرد حيوان .. قوة غاشمة .. انه لثيم .. » .

اخذ الحنين الى الماضي يتناب صاحبا وينمي غصته ، والغلق يمص كل اهتماماته . وفي ليلة الاحتفال بعاشوراء ، كان كل فرد يتقدم الى وسط الفرفة ليحكي حكاية هزلية من قريته ، او يرقص ويفني كما يفعل ناس اقليمه .

وجاء دور المشلف ، فصرح لهم معتبرا بان باعه قصير في هذا الميدان ، ثم اضاف :

« منذ اسابيع ، وانا افكر في يوم عاشوراء وما يمكنني ان اقدمه لكم زكاة وصدقة بهذه المناسبة ، فلم احد لدي الا سلطة (الكبران) . هذا كل ما املكه » .

سكت المشلف ، وابتلت عيناه ، ثم قال في لهجة صدق وتائر :

- آه ! يا لمرارة التجربة ! انتصر المشلف وهو لا يمثل ، يصدق ، شخصي كما هو في الواقع ، وكما وددت ان يكون .. انتصر المشلف لانه يتجسد القوة الفاشمة ، لانه يتحدث بلسان العضلات المنيعة ، وبالركل والتفريع والوعيد ! .. انتصب هذا المخلوق الخبث على جثة الحاج عبد الله الدكالي الخير الوديع الذي كانه غفر الله له ، يؤمن في معاملاته بقوة المبادئ ..

تلف المشلف بسكته ، وحنى رأسه ، وقد خائته قسواه ، وانتابته انفعالات متتابعة متضاربة . ثم رفع رأسه ، وقال في لهجة هادئة :

- اني اظلم المشلف . فالذي قضى على الحاج عبد الله الدكالي هو في الواقع الحاج عبد الله الدكالي نفسه ! ..

انتبهت الانظار ، وكانت العيون تتسائل باستغراب . فطن المشلف لذلك فاضاف :

- نعم ! الحاج عبد الله الدكالي لم يقتله احد ، بل انتحر . كان ، عفا الله عنه ، انانيا حتى خنقته انانيته ومات . دخل السجن فاخذ يعيش لوحده حياته الروحية ، يصلي ويكثر من الاذكار ، ناسيا رفاقه .

لو لم يكن الحاج عبد الله الدكالي انانيا ، لعلمكم القراءة والكتابة ، ولازم نفسه بتهديبكم وتخفيف ما بكم . الحاج عبد الله الدكالي مثقف خان الثقافة ، فكانت النتيجة ان تفلت الواقع المر على انانية الثقافة

وغرور المتقف ...

ابتلع المشلغم ريقه ، ومسح عينيه ، وتدثر بسكوت لم يقاطعه احد .
الجميع متأثر ينامل فيما نسمع . واخيرا ارتفع من جديد صوت المشلغم :
- من الان ، لا اريد ، ان يسند الي نسيير الفرفة ، اني ارفض . .

ساد الفرفة جو التوتر والترقب ، فحسبت انفاسها لتتلطف كلمات
المشلغم بكل ايمان . وبعد فترة سكوت ، استأنف صاحبا ، وعلامات
التأثر بادية عليه :

- اطلب من عمر المسامحة ، فليستعد مكانته ، وليكن ، مسرة
اخرى ، « كبرانا » على غرفتنا . يصعب علي ان اراه ذليلا بدون سلطة ،
عرضة لانتقامات بعضكم في الشغل ، خارج الفرفة . فكما يقول المثل :
« اذا طاحت البقرة استعدت السكاكين » ! .
طلب احد القوم الكلمة :

- نعاهدك بحق القمح والملح اللذين نتقاسمهما منذ زمان اننا لا نترك
احدا يؤذيه .
فقاطع المشلغم :

- يستحيل علي ان يعدم ، في غرفة واحدة ، شخصان . اولهما
عمر ، لان نزعته من السلطة هو اخطر الكبير على معنويته وجسده . ان
في نزعته اعداما له محققا . انظروا اليه ! لقد ذبل خلال هذه الشهور
الاخيرة . الا يكفيننا اننا اعدمنا الحاج عبد الله الدكالي ؟ فالمشلغم قناع !
انه دور اللعبة لان الظروف فرضت ذلك . فمن وراء القناع شبح عبد الله
الدكالي لم يفن مع الشخص . انه يبابني ، ولكنني سأعمل جهدي
ليفتى مع الماضي ، مع اللحية ومع الصلاة ، عساني لا اعود اسي عزلتي
الخائفة ، الى الوحدة في عالم غير عالمكم . فعندما تختنق كسل انفاس
شبح الحاج عبد الله الدكالي ، وهذا ان يطول ، سأنحدر تحريدي النهائي ،
واصير منسجما كامل الانسجام معكم .

مد يده الى عمر يصافحه ، ثم الى كل القوم واحدا واحدا :
- فلننم الان ، وغدا سنلتقي الاوامر من عمر ، كالعادة ، فلنبايعه
من جديد ، وبالاجماع ، كما نزعناه بالاجماع .

بأثر الجميع بموقف المشلغم . كانت مفاجأة صادمة : القائد المنتصر
ينازل عن التاج ويدعم سلطة خصمه اللدود ! ... لم يتعود القوم الا
شريعة الغاب : الحق مع الغالب ، ويبقى هو الغالب ما بقيت قوته تسمح
له بان يركل ويلطم . وليس على الضعيف الا ان يخدم القوي ليحتمي به .
تجمع افراد ، في كل ركن من الفرفة ، وهم وقوفا ، والتف البعض
حول المشلغم ، فمن متمم ومن مجاهر بالصوت . وبعد اكثر من عشر
دقائق ، كان خلالها عمر ينتقل من جماعة اسي اخرى ، ضرب بحجرة
صغيرة على عتبة من القصدير أربع ضربات ، ففهم القوم العبارة ،
واصطفوا مسندين ظهورهم الى الجدران ، في نظام عسكري : تقدم عمر
الى الوسط ، ونظر الى رفاقه مبتسما ، وقال مخاطبا المشلغم :

- اني اقبل اقتراحك ، على شرط ان تعطي انت الاوامر ، واننا
انفذ ، (ثم الى القوم) : سنسحب من كلامنا اسم « المشلغم » ولا
ننادي رفيقنا الا ب « الحاج » .. متفقون ؟

- يبحيا الحاج ! يبحيا الحاج ! ..

هنا تدخل المشلغم ليوكد بان الحاج الدكالي انتحز ، فمن
المستحيل احيائه :

- اننا ابناء اليوم ، لا ابناء امس ... فلنتترك الحاج عبد الله
الدكالي في الماضي مع الوتي . المشلغم فد ثقل ذكريات الحاج عبد الله
الدكالي ، ومبادئه ، واعماله ! لا اريد اسما بدون مسمى .

استرسل صاحبا يشرح للرفاق ان الاشخاص كالزهور التي
تذبل اذا لم تسق . فالحاج عبد الله الدكالي يبست غصونه في
السجن : كان متعلما فقيها ، ولكن معرفته جف معيتها من قلة الاستعمال
والانفاق ، ان العلم لا يعرف الوقوف ، فاما زيادة ، واما نقصان حتى
الاضمحلال . ثم اضاف :

- لقد رمي بي في السجن وانا ، والله يشهد ، بريء ، فوجدت
عزائي في العبادة المفلقة ، اي في الانكماش على نفسي . واليوم ، فد
تفهمت ان افضل وانجع انواع العبادات ما يوصل الى الله ، عن طريق
خدمة اخواني من البشر ، وان الفائدة الحقيقية لتقافتي هي ان
استغل معرفتي في تعليم الاخرين . بيد ان عنادكم أقوى من عزمي ،
كان مكرم شديدا حتى انهزم الحاج عبد الله الدكالي وحل محله
المشلغم ، بعد تردد اليم . . ان الانسلاخ عن الشخصية فوق طاقة أي
انسان ، انها مأساة عشتها أعواما وانا اصارع الحاج عبدالله الدكالي . .
اما الان ، وقد فضي الامر ، فلننم بسلام . فقاطع عمر :

- أولا ، ان الشخص الذي نقترحه ليس هو الحاج عبد الله
الدكالي الاناني ، كما وصفته ، بسبل شخص اخر : انه « الحاج » ،
ثانيا ، ان الانتصار الحقيقي لم تحصل عليه بعد . حقا ، ان يتحول
الانسان من شخص سام الى شخص سافل ، مثلما فعلت أنت ، عمل
صعب ، ولكنه ليس مستحيلا ما دمت قد حققته . اما المعجزة التي
يتمنى جميع الرفاق ان تنجزها ، فهي ان تحول المشلغم الى الحاج ،
وان تجعل منا حلفاء للثاني على الاول . انك تعلم ان الهبوط أسير من
الصعود ، في كل الميادين . . وعلى أي حال ، فالرفاق قد تداولوا
واقفوا على مقترحات اطلب منك ، انا « الكبران » عمر ، ان تنصت
اليها (ثم الى المساجين) : ١٣.٩ ! (١)

الرجل ١٣.٩ مربع القامة ، اسمر ، له حاجبان كثيفان . تقدم
من المشلغم وقال :

- باسم اصحاب العشرين (٢) ، اطلب من المشلغم ان يسحب
ليترك المكان للحاج يعلنا القراءة والكتابة .
ثم نادى عمر على ٦.٠٣ ، فتقدم رجل أعرج ، طويل القامة ،
وصاح في المشلغم :

- باسم اصحاب الخمسة عشر ، أؤيد اصحاب العشرين ، كما
اريد شيئا من التهذيب ، والله يرحم من علمنا .
ومر ممثل اصحاب العشرة ، واخيرا جاء دور ممثل اصحاب
ما بين العشرة والخمسة : الكل لا يريد بالحاج بديلا ويلج عليه في
تنظيم دروس .

كان النصف اتخيتي من جدران غرف (عين مومن) مصوغا
بالاسود ، وليس ثمة عناء في النقاط قطع من الجبس من معالم او من
مزارع السجن واستخدامها على جدران الفرفة ، انها سبورة ممتازة .

تتابعت الدروس بانتظام ، والحاج لا يعرف معنى للراحة : يعيش
للرفاق . وبقدر ما تنمو المكتسبات الاخلاقية والتعليمية ، بقدر ما
يزداد صرامة مع القوم ، ملحا على ان لا يترك صغيرة الا احصاها ،
فكم من مرة دخل في شطحة عصبية ، يوبخ ويرعد .

أضحى جميع القاطنين بسجن (عين مومن) على علم بما يجري
في غرفة ٧٣ ، فاطلق عليها أحد المسيرين الإداريين « المدينة الفاضلة » ،
واصطلح عليها المسجونون « جامعة الشعب » ، كما سماها اخرون
« المسجد » . وكلما تحرر أحد من القوم ، متن اتصالات مع الرفاق
من الفوج ، بالمراسلات ، وطرود الاطعمة ، والملابس ، والزيارات
في الاعياد .

نجحت مهمة الحاج فكان له النصر الاخير على المشلغم . لهذا ،
لما وقف مساء ليلة الخميس ٧ اكتوبر ١٩٦٣ وصاح « يا اخوة ! » ،
« يا رجال ! » ، بصوت أبج ورنات منفلعة ، شعر القوم بان شيئا
ذا بال قد حدث ، او على وشك الحدوث .

وفلما ، أطلعهم الحاج على مشكل هام جدا : بمناسبة ١٨ نوفمبر ،
يوم عيد الاستقلال والعرش ، تقرر بوزارة العدل ان يكون الحاج من
بين الذين سيشملهم العفو . هكذا سينتهي ، بعد شهر ، مصيره

(١) يعرف الاشخاص ، في السجن ، بأرقامهم ، وبها ينادى عليهم .

(٢) في عرف السجن : هم المحكوم عليهم بمتربين سنة

المعتلات ليعطوا السجناء ويواسوهم ؟ لماذا لا يحاربون الامية بالسجون ، وأيام الاسواق بالبوادي ؟
سكت الحاج ، ومسح جبينه بكمه ، وغاب نظره بعض الوقت ، ثم أردف باستعطاف :

— أناشدكم الله ! شجعوني على ان ابقى معكم . هنا نتحقق هويتي ، كما يرضاها ضميري . خذوا بيدي . لا نرموا بي فسي حيس حريتهم . اركوني حرا في سجنكم . هنا اعمل ، مع جماعة حسنة النية ، لنحقق أهدافا لا نرجو من ورائها أية مصلحة خاصة . اما في بيتهم ، فلا يد لي ان اصير ، اما الحاج عبد الله الدكالي المجامل الفنع ، واما المشلّم اللفظ الفليظ القلب . لكن ، من المستحيل ، في الوقت الحاضر ، ان اكون في وسطهم الحاج الذي يحكم ونحبونسه ، حاج غرفتنا العزيزة .

بعد مناقشة بين الحاج وبعض الرفاق ، ختم عمر الجلبيّة :
— القضية تطلب مزيداً من التأمل . فلنتناولها بعد غد ، بعد ان تختمر . هل انتم متفقون ؟
— نعم !
— ليلة سعيدة !

نام البعض ، وأصيب آخرون بالارق ، فاندفع فكرهم يسبح فسي عالم الافتراضات والتخوفات :
— اذا خرج الحاج ، انقضت عروة غرفنا ، وعدنا الى ما كنا عليه : تشاجر وتقاتل ...
— بدون الحاج ، ستصبح الفلبة لاصحاب العضلات القوية ...
فويل للضعفاء !...
— من واجبتنا ان نشجعه على ان يخرج الى حياة الاحرار ... من الظلم ان يبقى الحاج في السجن ...

وبينما كان بعض القوم يعيش صراعا بين النوم والتفكير في الموقف من وضع الحاج ، انتصر صاحبنا على اعصابه ، وفوض على عنان النوم ، ثم استسلم الى أحلامه وشغيره المعتاد .

لم يكن ، هذه الليلة ، حلم الحاج حلما هادئا ، بل كان كابوسا :
ها هو ينقل خطوات ثقيلة في أزقة الدار البيضاء ، ولكنه عينا يحاول ان يتعرف على وجوه مواطنيه وعلى الامكنة : كل شيء قد تغير ، انه غريب في مسقط رأسه . آه ! هو لم يرغب في الخروج من (عين مومن) ، فمن أخرجه ؟ ألم يرفض ؟ لقد نسي : ربما خضع لالحاح عمر والاخوان فقبل الخروج ارضاء لهم ... على أي حال ، انه فقد نسي . هو لا يدري ، فرأسه يوجعه ، وفي اذنيه طنين ... لاحقه الليل وهو يسير في طرق كثيرة متشعبة . سار حتى أرفقه المشي ، فجلس على عتبة بناية كبيرة ليستريح .

الطريق طويلة ...
الليل بارد ...
الطين فارغ ...
التياب خفيفة ...

وضع الحاج جبينه في كفيه ، وضع ركبتيه ، وركز مرفقيه على الفخذين . لم يمر الا وقت قصير حتى سمع :
— ايه ! ماذا تفعل هنا ؟ هذه العتبة ليست سرير النوم ...
وقف الحاج واعتذر : انه تعب ، جلس ليستريح . فصاح فيه الشرطي :

— الواحدة صباحا و ٢٥ دقيقة ! غريب . لم تختار الا هذه الساعة ، وهذه العمارة !... انك بلا شك تعرف ان الحلي التي سرقيت من هنا ، منذ يومين ، تعتبر ثروة محترمة . هل لك رفاق يستريحون ، مثلك ، في بعض العمارات !...
— لا ، اني وحيد .

بعين مومن ... كان الحكم على الحاج بعشرين سنة ، ولحسن سلوكه بالسجن ، أعفي من حمسه اعوام ، وها هو العفو يرعاه مرة أخرى فيحفض له من حسابه ثلاث سنوات ، وسيفرج عنه . ولكن ، لأول مرة في تاريخ (عين مومن) يرفض سجين العفو والحرية !... يرفض المشي في الطرقات كما يشاء ، واكل (الطواجين) ، ومجانسة النساء ، والنوم بدون بنين او بنين . آه على الحرية ! امال ارضيه شخصية ، واعمال مجانية ...

نهد الحاج ، قبل ان يصرح :

— لا أخفي عليكم انه ، منذ وصلني الخبر ، وانا في زهول ... اني جد قلق على مصير (مديننا الفاضلة) . لقد بنيناها جميعا . فمن جهي انا ، اعبر ان احسن عمل ساهمت فيسه ، طوال حياتي ، هو هذا .

فصاح أحدهم :

— هذه (الجامعة الشعبية) كلها من عملك ، اولئك ما تحممت .
— لا ! لا نبالغ ! انها عمل مشترك تساوت فيه الاسباب . على كل حال لقد صبح عزمي على ان ارفض الخروج الى دنيا الاخرين ...
فقاطعه عمر :

— لا معنى للرفض ! انه موقف سلبي . حرام عليك ان تصحى بحريك من اجلنا . ان لنفسك عليك حقا ، ولاهلك عليك حقا .
— لا حق لاهلي علي ! لقد نسوني ! اننا عشرة سنة بالسجن ، يا أخي ، شيء غليظ على البصر ، نعيد على الذاكرة !... في الخارج ، نكل واحد سجين لمصانحه ، لها يعيش ، لا بها . انهم جميعا يحترفون ، كل يوم ، بلهيب المزاحمات والكذب والنفاق . أشهد اني من غرفة ٧٣ ، أعيش بمباديتها ، ولا أسعد الا في هذا الجو من الاخاء والصدق .
ساد الشرفة صمت ثقيل ، ونجلى مزيج من الفرح والحزن على كبير من الوجوه ، ففاجأهم ٨.٩ بقوله :

— لقد عودنا الحاج على التأمل قبل اتخاذ القرارات ، وان نقوم بصوت ديمقراطي ، كلما وجدنا أنفسنا امام مشكل ذي بال . فلماذا الحاج ينخذ موقفا نهائيا دون مشاورتنا ؟
فعبق ١٢.٥ بقوله :

— نعم ، لا بد من ان ندرس جميعا الوضع . لن نسمح للحاج ان يقرر وحده الحل .
فأضاف آخر :

— من رأيي ان نمنعه بالخروج ، وأن نعلمه بان غرفتنا ستبقى (جامعة) ، و (مدينة فاضلة) ، و (مسجدا) . فليس عليه ان يضحى من اجلنا اكثر مما فعل . لا يكلف الله نفسا الا وسعها . هذه تعاليم الحاج نفسه . . . أليس كذلك ؟
حاصرت الانظار الحاج ، وبها حنان ، وفيها استعطاف . فشمس بان الاجماع قد وقع على غير رأيه ، ولكن هذه المرة تقوم المعارضة على المودة والاخلاص ، لا على العداوة والشر :

— معذرة ايها الاخوان . اريد ان اعرف ماذا ترون اني فاعل في الخارج ؟ انريدون ان اقبل الحاج لانسجم هناك مع عالم المجالات والغش ؟...
— أنت مثقف كثيرا ، وطيب كثيرا ، فستحقق مشاريع اجمل وأفضل مما فعلت هنا . اننا لا نخاف على الحاج !

— تخمينات بريئة ، ولكنها ساذجة ! في بيتهم ، خارج (عين مومن) ، الرطب يحترق باليابس . ان عدوى الشر والفساد افوى من عدوى الخير والاصلاح . أنتظون ان الثقافة تعطي الحصانة ؟ يا للساذجة ! اني لم ادع دوري كمتقف الا هنا ، منذ الليلة الملوثة ، ليلة خلق اللحية . . . فلو فام مثقفونا بدورهم ، لما كان عدد سكان (عين مومن) وبقية السجون بالمقرب كثيرا الى هذا الحد المدهش . . . ماذا استفدتم انتم من الفقهاء ؟ ما اكثرهم ببلادنا ! المثقفون كالجراد بنظوان ، وفاس ، ومراكش ، والدار البيضاء ... فلماذا لا يزورون

نفخ الشرطي في صفارته ، فاهتزت أعصاب الحاج وهو مذهول في وقفة صليب مثلج . ولم تمض الا ثوان ، حتى نزل شرطيون من سيارة سوداء مستطيلة محصنة ، وأحاطوا بصاحبنا . ففسال له الشرطي الاول :

– هات ! أطلعني على ورقة الهوية .
أخذ الحاج يتنهم :

– الهو .. وي .. يا ؟ .. خرجت من (عين مومن) هذا الصباح .
ما عندي أوراق .. ليست لي هوية ..

– كم قضيت بالسجن ؟

– حكم علي بعشرين ، قضيت منها اثنتي عشرة .

– أيوا ! اذن لك سوابق ! .. نعم الفتيمة ! .. اطلع هنا !

صعد صاحبنا السيارة – العلبسة ، وأوصد الشرطيون الباب والشبابيك ، فنظر الى رفاقه في السيارة ، وهم عنه غافلون . ثقل عليه همه ، يريد أن يشنكي ، أن ييوح بحزنه . ففاتح الرفاق الثلاثة :
– فيحه الله من زمن ! ما ذنبي ؟ ألاني كنت في السجن مرة ، يلزم ان اتهم كل المرات ؟

رفع أحدهم رأسه ، فنجلت لحيته الطويلة الانيقة وقد ازدان بها وجه عريض ، وأجاب وهو يحرك حبات السبحة :

– هذه مفادير الله تتصرف ! اصبر ، وفل الحمد لله على ما أعطى . على كل حال ، أرجوك ألا تقاطعني مرة أخرى ، لاني أتلو آيات من الذكر الحكيم وبعض الاذكار .

سمع صاحبنا هذه الجملة الجافة ، بشيء من الذعر : رنات الصوت ، واللحجة ، والهندام ، و .. نعم : الصوت ، للحية ، الجسم .. الكل معروف مألوف عند صاحبنا : أن الرجل الذي أمامه بسبخته ولحيته واذكاره هو .. الحاج عبد الله الدكالي ! .. جمع صاحبنا كل فواه وصاح :

– أنت هنا ؟ .. ألم أطلقك طلاقا بابا ؟ اسكت ! لا حاجة لسي في كلامك الفارغ .. لماذا تتابعني ؟ ألم أقتلك ؟

– الماضي لا يقتل ، انما نتناساه ، حتى اذا جاءت الفرصة المواثية ، انفجر من الأعماق وحاصرنا .

– اسمع ايها الحاج عبد الله الدكالي ! ان كنت لم أقتلك ، فاني فاعسل الان .

ضم أصابع يده اليمنى ، وأخذ رفيقه باليسرى من لحيته ، وصار يضربه بشدة على رأسه ، حتى نبع الدم من اليد وسقط عبد الله الدكالي مغمى عليه . فصاح رفيق ثان ، بلهجة متصعلكة :

– ماذا نفعل ؟ احتفظ بقواك لصراعات تنتظرك بالسجن ! .. هناك لن تجد امثال هذا الفقيه ، بل زمرا من الخيلاء الذين لا يعيرون الا بالركل ولا يهابون الا القوة الجسمية . اترك هذا الشيخ المغفل ، وادخر فواك لسجناء (العاذر) او (عين مومن) .

كانت كلمات الرجل تنزل على صاحبنا كحجارة نارية تكويه : رنات الصوت ، واللحجة ، والشاربان ، والنظرات القاسية ، كل ذلك تجمهه بصاحبنا روابط عميقة . جحظت عينا صاحبنا وصاح منعورا :

– المشلفم ! .. المشلفم ! .. أنت ايضا هنا ؟ .. المشلفم ! ..

ماذا نفعل هنا ؟ ألم أعدمك ؟ انه هو ! المشلفم اللعين ! .. فاطمه المشلفم :

– مسكين ! أنظن ان الواقع يسير طبقا لنوفك وارادتك ؟ لقد وددت ان تنفصل عن المشلفم الى الابد ! ها .. ها .. محال ، يا مولانا ، ان ينسلخ المرء عن ماضيه ، عن شخصياته ، أي عن المراحل التي نمر بها حياته . ماضينا يلاحقنا . الماضي من كيان الهوية .

– اسكت ، ايها الاجلف ! اني لا احترمك ، لا احبك . لا ..

– ان احترامك وحبك لا يغيران شيئا من الواقع . سابقى أنا أنت ، وستبقى أنت أنا ، الى الابد .

رفع الرفيق الثالث رأسه ، وابتسم لصاحبنا ، فوقف هذا وابتسم قبل ان يرمي بين ذراعي الرجل :

– آه : الحاج ! عنك ابحت . الحاج ! .. الحاج ! .. انت عزيز علي . الحاج ! اريد ان انسئ الشخصيتين الاخرين فيك ! ..

– لا بأس ، لا بأس !

– لقد رأيت اني خرجت الى العالم الاخر ، فأثقلت كاهلي حرياته الزورة . اني لا اجد حريتي الحق واطمئثاني الا في سجننا ، في مدينتنا الفاضلة . هناك ، في عالمهم الاخر ، وجسدني محاصرا بالجريمة التي لم أرتكبها ، بالظلم ، بالنهم .. كنت فريسة للضياع .. اني لا اريد بأخوتكم وأخلاصكم بديلا ..

تدخل أحد المساجين ليصرح بأن الحاج سيبقى معذبا في الخارج اذا اكتفت العدالة بالعمو عنه . لو ان العدالة كانت مستقيمة لوصلت الى براءته . ففي العفو تأكيد للجريمة .. البراءة وحدها نفل وجه المظلومين من سواد التهمة . ان رفض الحاج للعفو هو رفض للظلم وتشبث بالبراءة ..

فقاطعه عمر :

– الان نوم ، وغدا امر ! .. اننا في حاجة الى شيء من الراحة . ألم نجعم على ان نترك الفصل في القضية الى بعد غد ؟ ليلة سعيدة !

– ليلة سعيدة .

محمد عزيز الحبابي

المغرب

آخر منشورات

دار الاداب – بيروت

ق.ل

● دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي

● للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠

● تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠

● جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥

● الخيل والنساء (قصص)

● للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠

● رحماك يا دمشق (قصص)

● للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠